ملامح إعجاز القرآن الكريم التأثيري على النفس البشرية

(The features of the impressive miracles of the Holy Qur'an on the human psyche)

محمد نعمان حسن المدني

أستاذ مساعد، قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية

الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، بنغلاديش.

ملخص البحث

إن الغاية العظمى والهدف الأساسي من دراسة إعجاز القرآن الكريم إثبات مصدرية القرآن الربانية، حيث إنه كلام الله عز وجل، وليس كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقرار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث بعثه الله رسولا للعالمين، وإعجاز القرآن برهان واضح من البراهين المهمة على هذه المسألة الجليلة، التي هي أساس الإيمان. قد أجمع الباحثون على القول بالإعجاز البياني وأن القرآن معجز ببلاغته وأسلوبه وبيانه وتعبيره، وأنه بهذا يقدّم شهادة عظيمة على مسألة إعجاز القرآن، وإثبات على أن القرآن كلام الله تعالى. وقد ذكر بعض الباحثين وجوها كثيرة للإعجاز، فقالوا بالإعجاز الغيبي، والإعجاز التاريخي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز الطبي، والإعجاز النفسي، والإعجاز الفلكي، والإعجاز الجغرافي، وغيرها .فالإعجاز التأثيري للقرآن الكريم يعدّ من أفضل الدراسات التي تظهر بلاغة القرآن وإعجازه. إذ لم يُتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير على النفوس والقلوب، فهو من المعجزة البيانية. وقد سعد المسلمون الأوائل بتمسّكهم بتعاليمه، والسير على نهجه وطريقه، كما سادوا الدنيا بأحكامه وقضوا حياة مليئة بالهناء في الدنيا مع ما يتلقاهم من الأجر العظيم في الآخرة. وقد أحببت أن أساهم دورا في خدمة كتاب الله تعالى بإعداد هذه المقالة "ملامح إعجاز القرآن الكريم

دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
المجلد السادس عشر ، العدد الأول
لعامي ٢٠٢١ و ٢٠٢٢م
(طبع في سبتمبر ٢٠٢٣م)
ص. ٥٣-٧٤
IIUC ©
ISSN 1813-7733

التأثيري على النفس البشرية عبر العصور.

الكلمات المفتاحية: ملامح، الإعجاز التأثيري، إعجاز القرآن، النفس البشرية.

Abstract:
The ultimate target and supreme goal of studying the miracle of the Holy Qur'an is to prove the source of the divine Qur'an, where it is the word of Almighty Allah, and not the words of the Messenger of Allah, and the Endorsement of the prophet hood of Muhammad -PBUH- where Allah sent him a messenger to the world, and the miracle of the Qur'an is a clear proof from many proofs on this dignified issue, and that is the foundation of the I'man. The scholars were unanimous in stating that the Qur'an is miraculous, and that is the miraculous in its rhetoric, style, features, expression, and that is thus provides a great testimony to the miraculousness of the Qur'an, and proof that the Qur'an is the word of Almighty Allah. Some researchers have discovered many facets of miracles, and they said the unseen miracles, the historical miracles, the scientific miracles, the legislative miracles, the medical miracles, the psychological miracles, the astronomical miracles, the geographical miracles, and so on. The Features of the miraculous impact of the Holy Qur'an affecting the human psyche through the ages is one of the best studies that show the eloquence of the Qur'an and its miracles. No nation has had a book like it in terms of rhetoric and influence on souls and hearts, it is a graphic miracle. In this simple research I will talk about "The Features of the impressive miracles of the Holy Qur'an on the human psyche ".

Key Words: Malamih, Al Ijaz al tathiry, Ija al Qur'an, Al nafs al Bashari.

مفهوم الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

معنى الإعجاز: هو مصدر على وزن إفعال، مشتق من العجز بمعنى عدم القدرة، وفعله الثلاثي عجز، يعجز، عجزا بمعنى ضعف[١]، ومن الرباعي: أعجز، يعجز بمعنى جعله غير قادر، يقال أعجزت فلاناً وعجّزته، وعاجزته، أي جعلته عاجزاً[٢]. قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾[التوبة: ٣] وقال أيضاً ﴿مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[الشورى: ٣١]

معنى إعجاز القرآن: إن مصطلح "إعجاز القرآن" لم يرد استعماله في القرآن ولا في السنة، ولم يكن متداولا في عهد النبوة والصحابة والتابعين، ولم يعرف إلا في أوائل القرن الثالث على وجه التقريب، بل وردت كلمة "عجز" ومشتقاتها في القرآن الكريم نحو ست وعشرين مرة[٣] أغلبها في معنى نفي القدرة للتعجيز عن المشركين.

وقد عرّفه القاضي عبد الجبار رحمه الله : "معنى قولنا في القرآن الكريم أنه معجِز أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختصّ به"[٤].

ويوضح الدكتور صلاح الخالدي: "هو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفّر ملكيّتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك وهو استمرار تحدّيهم وتقرير عجزهم عن ذلك"[٥].

فإعجاز القرآن هو إظهار صدق النبيّ صلّى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة– وهي القرآن– وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك؛ لأن القرآن قد سما في علوه إلى شأن بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته، أو تشريعه، أو مغيباته.

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم: إنَّ للقرآن الكريم تأثيراً بأسلوبه الخلاب على سامعه وقارئه، من خلال سلطانه العجيب الذي يؤثر في القلوب المؤمنة والكافرة، فاعتبر بعض العلماء هذا التأثير وجها مستقلا من أوجه الإعجاز القرآني. فهو " وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، كما أشار إليه السابقون، ويتمثّل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين

به"[٦]. أو هو تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية عندما تسمعه، وتفاعلها معه حتى لو كانت نفسا كافرة[٧].

آراء العلماء في تأثير القرآن في النفوس

قد لاحظ علماء تفسير القرآن والبلاغة في القديم والحديث تأثير القرآن الكريم في القلوب وفي النفوس فاعتبروا ذلك التأثير من وجوه إعجاز القرآن. سأذكر أبرزهم بإيجاز:

- **الخطابي** أبو سليمان بن إبراهيم كان أوّل من اعتبر هذا التأثير القرآني وجهاً خاصّاً من وجوه الإعجاز، قد ذكر في رسالته "بيان إعجاز القرآن " أن في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا القليل من آحادهم وذلك حيفة بالقلوب، وتأثيره في النّفوس فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن، منظورا ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور[٨].
- **الإمام ابن القيّم الجوزيّة** بيّن ما يحصل على القلوب والنفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية، وتستلذ الأسماع وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء أكانت فاهمة لمعانيه أم غير فاهمة، وسواء أكانت كافرة بما جاء به أم مؤمنة. حيث قال:[٩] إذا تريد الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله فقال سبحانه وتعلى قائلا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧] فجعل ابن القيم أركان تأثير القرآن أربعة : ١- المؤثر القوي (والمقصود به

القرآن الكريم) ٢- أدات التلقّي (القلب والسمع) ٣- رغبة السامع في تفهم ما يسمع وتعقله. ٤- الخروج من شتى الموانع، سواء أكانت انحرافات عقدية، أم شبهات فكرية، أم نزعات شهوانية، أم مكانة أدبية، أم منزلة اجتماعيّة، أم غير ذلك.

● **الدكتور عبد الكريم الخطيب** تحدث عن إعجاز القرآن الكريم حديثا طويلا، متناولا إياه من خلال آراء علماء البلاغة، ووقف أمام وجه الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وقفات دقيقة، وحاول أن يكشف عن سر تأثير القرآن في سمعه من المؤمنين والكافرين على حدّ سواء. فيقول: "وهذا هو سر الإعجاز وعظمته" هن كلمات لسن من كلام الناس ثم يفعلن هذا الأمر العجيب في النفوس، ويضمن هذا السلطان القاهر على القلوب "[١٠]. ثم بين الخطيب مزايا هذا الوجه دون سواه فهذا الوجه يمتاز عن سائر وجوه الإعجاز بأنه المعجزة القائمة في كل حين، وتسع الناس جميعا عالمهم وجاهلهم، عربيهم وعجميهم. وأنها لا تقتصر على الإنس وحدهم بل وتسع الجن أيضا.

● **الشيخ محمد الغزالي** وحديثه عن الإعجاز النفسي والتأثيري جاء مرسلا دالا على سجية مؤلفه ويحمل في طواياه هذه النقاط الأربع السالفة، ونتطلب النقطة الأولى من حديث الشيخ عن الإعجاز النفسي فبعد أن يتحدث عما يعرض له القرآن من عقائد دينية، وأحكام تشريعية، وحقائق علمية ثابتة يقول: قد تجد في القرآن حقيقة مفردة، ولكن هذه الحقيقة تظهر في ألف ثوب، وتتوزع تحت عناوين شتى، كما تذوق السكر في عشرات الطعام والفواكه وهذه الإعادة مطلوبة، وإن لم تزد به الحقيقة العلمية في مفهومها، ذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فحسب، بل بناء الأفكار والمشاعر ونقاط

مؤلفه آخر ما تختلفه اللجاجة من شبهات.....، ثم الهجم عليها بالحجج المقنعة حتى تبقى النفس وليس أمامها مفرّ من الخضوع لمفهومها للحق والاستكانة لله وعندي أن قدرا من إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى هذا "[١١].

- **سيد قطب** يقول عن تأثير القرآن الكريم " إن في هذا القرآن، سرا يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصرا ما ينسكب في الحسن بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحا، ويدركه بعض الناس غامضا ولكنه على كل حال موجود هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره"[١٢].

ويقول رحمه الله للقرآن تأثير عجيب على الأفئدة وسلطان قوي على النفوس: "يبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب العزيز، يبقى ذلك السلطان الذي له على الفطرة متى خلي بينه وبينها لحظة — وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب وثقل فوقها الركام تنتفض قلوبهم أحيانا وتتململ، وتحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن. إن الذين يقولون كثيرون.. وقد يقولون كلاماً يحتوي على مبادئ ومذاهب وأفكار واتجاهات، ولكن هذا القرآن ينفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول: إنه قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب "[١٣].

ملامح تأثير القرآن الكريم على النفس البشرية عبر العصور

إن تأثير القرآن الكريم في النفوس قد بلغ مبلغا عظيما لم يعرف قبله ولا بعده كلام قط، إذ تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم روعة وخشية وتعتريهم هيبة وتهيمن

عليهم عظمته، ونرى آثاره على الجاحدين أبلغ وأظهر، إذ يقرعهم عن ضلالهم ويقيم عليهم حججا لا معقب لها فيستثقلون سماعه ويتولون عنه بنفور مدبرين كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]

أولاً : ملامح تأثير القرآن الكريم على نفوس المشركين وعلى أهل الكتاب:

● **ترك الكفر والميل إلى الإسلام.** القرآن الكريم قد أثر العرب تأثيرا كبيرا، في اللغة والأسلوب وفي المعاني والأفكار وفي الصور والأخيلة، فجاء فريدا في نظم آياته، بديعا في أداء أغراضه، رائعا في عرض صوره ومخترعات بلاغته، له بلاغة القول الرفيع وبلاغة أخرى لم يعرف سر رقتها وبيانها وأحكامها. فغير مجرى حياتهم وحوّلهم من حالة الكفر إلى حالة الإيمان، كما حدث عند جبير بن مطعم، حيث قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية، " ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ۝٣٦﴾[الطور: ٣٥-٣٦] "كاد قلبي أن يطير"[١٤].

● **التحول عن الآراء المعاندة للإسلام والدخول فيه**

أشار أبو سليمان الخطابي إلى كثير ممن كانوا أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله فلما سمعوا آيات من القرآن الكريم لم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وركنوا إلى مسالمته والدخول في دينه[١٥]. كما ثبت في تاريخ الإسلام أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحول من الكفر والجحود إلى الإسلام والإيمان بسماع آيات من القرآن الكريم تتلى في بيت أخته فاطمة.

● **الاضطرار في الاعتراف بالحق مع البقاء على الكفر والشرك تعنتا وعنادا.**

وقد أثر القرآن الكريم على قلوب غير المشركين حتى اضطر في الاعتراف بالحق مع بقاءهم في الكفر، كما حدث هذا عند العدد من الكفار والمشركين، ومن أشهرهم الوليد بن المغيرة [١٦]أتى يوما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠] فقال له أعد، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الوليد بن المغيرة: (والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر). "[١٧].... لكنه بقي على كفره حتى قتل في بدر .

كما حدث عند عتبة بن ربيعة [١٨]وكان سيّدا حليما، أرسلته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليساوموه على أن يدع ما هو عليه ويترك دعوته، فاستمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى عروضه السخية، حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فاسمع مني"، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾[فُصِّلتْ:١-٥].

حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد وسجد معه عتبة ثم قال له: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك. فرجع عتبة إلى أصحابه، وقال: إنّي سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط، ماهو بالشعر ولا

بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش ! أطيعوني، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. قالوا: سحرك بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم)[١٩] وهذا اعتراف خطير من أبي الوليد بن المغيرة أمام سادة قريش وكبرائهم بإعجاز القرآن الكريم وأثره في النفوس والقلوب والجوارح.

و من الأحداث اعترافات أساطيل قريش وسادتها والكل يلهج بكلام واحد وقد تصور تصورا واحدا، ألا وهو أن القرآن الكريم ليس من صنع البشر وأنه معجز لا قبل لهم بمعارضته بل أن كل من يسمعه منهم يخفق له قلبه وتنفعل أحاسيسه ويحن إلى سماعه المرة تلو الأخرى، لا يستطيع أن يفطم نفسه عنه.

- **استماع تلاوته**

ومن تآثير القرآن على نفوس الكافرين أنهم كانوا يستمعون تلاوة القرآن، حيث روى التاريخ أن الإحساس بتأثير القرآن الكريم كان يجلب رؤساء هؤلاء المعاندين ليلا لاستماع تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته، على ما كان من نهيهم عن سماعه وتواصيهم بذلك. كما هو مذكور في آحاديث رويت عند أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق عندما كانوا يجتمعون لاستماع تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم[٢٠،٢١]، وقصة معروفة ومروية في كتب السير والتاريخ.

ثانيا: تأثير القرآن الكريم على نفوس المسلمين.

إذا كان القرآن الكريم أثر على المشركين عبدة الأوثان بشدة، فالأولى والأجدر أن يؤثر على قلوب المؤمنين الذين هم عبدة الرحمن وأولياءه، فمن مظاهر تأثير القرآن الكريم على المؤمنين:

١- البكاء :

فالمؤمنون إذا تتلى عليهم القرآن الكريم فلا يتمالكون أنفسهم فتنهمر الدموع من أعينهم ويبكون حبا للقرآن وتأثرا بأسلوبه المحبب إلى النفوس . يقول الله تعالى بعد أن تحدث عن بعض الأنبياء والرسل في سورة مريم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم:٥٨] فهؤلاء إذا سمعوا كلام الله المتضمّن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمدا وشكرا على ما هم فيه من النعم العظيمة، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم وإقرارا لأطرازهم، ولما تلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم سجد وقال: (وهذا السجود فأين البكيّ) يريد البكاء[٢٢].

وعلق سيد قطب "أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذرّيتهم صفتهم البارزة ﴿إذا تُتلى عليهم آياتُ الرَّحمنِ خرُّوا سُجداً وبُكياً﴾ [مريم:٥٨]، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدا وبكيا "[٢٣]. ويقول أبو السعود " هنا بيان خشيتهم من الله تعالى وخوفهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلف من الله عز سلطانه خروا ساجدين باكين[٢٤]".

ومن الأمثلة على تأثيره لسماع القرآن، وبكائه الإصغاء إلى القرآن ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ عليّ، قلت أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت على هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١] فقال: حسبك الآن... فإذا عيناه تذرفان[٢٥].

فنرى تأثير القرآن الكريم في نفوس الصحابة تأثيرا عظيما قادهم إلى الانتقال من الشرك والكفر والجاهلية إلى ظل الإسلام. ومن أوضح الأمثلة على ذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان سبب إسلامه سماعه القرآن الكريم.

٢- الوجل في القلوب

الوجل في القلب وهو الخوف مع التعظيم ولا يكون إلا لله عز وجل . لقد أحرز المؤمنون عند ربهم درجة عالية رقيقة لتأثّرهم بالقرآن الكريم، تأثراً عمليا صادقا، له نتائجه في واقع حياتهم وحياة مجتمعهم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

يقول سيد قطب مبينا هذه المظاهر: "والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الطمأنينة" إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا واسطة ولا يحول بينه وبين القلب شيء إلا التمرد والطغيان الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان، وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانا، فإن القلب المؤمن وهو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيمانا [٢٦].

٣- اطمئنان القلوب

قراءة القرآن الكريم تبعث الطمأنينة في قلب المسلم ولذلك فهي الأجدر أن تحصل بها طمأنينة القلب، ومن عظمة القرآن الكريم وفضله وبركته أنه ربما يحصل به الخشوع وطمأنينة القلب لمن لم يفهم معناه عند تلاوته أو سماعه، وأما من يقرأ القرآن بدون تدبر فلا يمكن أن يقال إنه كمن لم يقرأه أصلا لأن قراءة

القرآن كلها فيها خير وبركة وهذا الخير يتفاوت باختلاف القارئين وكيفية قراءتهم، أما من لم يقرأ القرآن فإنه يحرم نفسه بالكلية من هذا الخير.

إن طمأنينة القلوب وسكونه مرحلة تأتي بعد إيمان عميق، وسماع واع وتدبر للقرآن فإذا عاشت القلوب على هذا المنوال تصل إلى مرحلة من الاطمئنان إلى وعد الله في كتابه الذي لا تحركه الزلازل، إنها القلوب المطمئنة التي بلغ فيها القرآن مبلغا من التأثير فقال تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨] أي هؤلاء تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله لأنها تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن، وقال مجاهد وقتادة: تطمئن قلوبهم بالقرآن الكريم[٢٧].

يقول الألوسي: إن قلوبهم تستقر وتسكن بذكر الله أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسبب سكون قلوبهم بذاك علمهم أن لا آية أعظم[٢٨]. ويقول سيد قطب رحمه الله: ذاك السكون والطمأنينة بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها ويندي بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام[٢٩].

٤- سجود وخشوع

إن تأثرات القرآن الكريم في القلوب تزداد فيجعلها طيعة لأوامره، منقادة لإشارته مستلهمة لما فيه تخشع أجسادهم في سجود، وتلهج ألسنتهم بذكر الله، وتنشق أرجلهم لأجل قيام الليل أقدامهم في قيام الليل والناس نيام، وتفيض أنفسهم قبل أيديهم بالإنفاق في سبيل الله. قال تعالى:﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا

ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدَا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ [السجدة:١٥-١٦].

قال ابن كثير: "إنما يؤمن بآياتنا أي يصدّق بها الذين استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون عن إطاعتها والانقياد لها. تتجافى جنوبهم عن المضاجع: يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة يدعون ربّهم خوفاً من وبال عقابه وطمعاً في جزيل ثوابه"[٣٠].

ويقول سيد قطب رحمه الله: "وهي صورة وضيئة للنفوس المؤمنة اللطيفة المرتجفة من خشية الله وتقواه المنحنية إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء، في غير ما استعلاء ولا استكبار، هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله وتتلقاها بالحس المتوفر والقلب المستيقظ والضمير المستنير"[٣١].

هذه أهم مظاهر تأثرهم بالقرآن الكريم إذا سمعوا آياته بادروا بالسجود له مسرعين، وتواضعوا واستكانوا وقاموا في الليل يخشون العذاب يرجون الثواب وكل هذه خلال لذواتهم وتزكية لنفوسهم وأما لغيرهم ولمجتمعهم، فقد أثر القرآن في تصرفهم، فجعل أيديهم سخاء بالإنفاق مما رزقهم الله. ويقول إسماعيل البرسوي: "ألم يجيء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى وتطمئن به ويسارعوا إلى طاعته والامتثال لأوامره والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور"[٣٢].

٥- قشعريرة الجلود

القشعريرة: ظاهرة فيسيولوجية تؤدي إلى تقلص عضلات دقيقة ترتبط بكل شعرة من شعر المنطقة المصابة بها، ما يؤدي إلى وقوف الشعرة، عندما يبكي المسلم من خشية الله ويقشعر بدنه من عظمة وعده ووعيده، يتمنى الواحد منا

أن يصبح مثله أو أن يكون مكانه فما يتبع ذلك البكاء والقشعريرة إلا لين في القلب وانكسار لجلال الله وانشراح في الصدر ليس له مثيل، يقول الله تعالى عن القرآن العظيم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[الغافر:٢٣].

فالقرآن بشهادة الحق تبارك وتعالى أحسن الحديث وهو الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وهو هدى الله تعالى يهدي به من يشاء من عباده وأما الذين يصدفون عن آيات الله ويتركونها وراء ظهورهم فقد قال الله فيهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [المائدة:١٥٧].

ويقول د. وهبة الزحيلي: "إن الله نزّل أحسن الحديث وهو القرآن الكريم لما فيه من الخيرات والبركات والمنافع العامة والخاصة وهو كتاب يشبه بعضه بعضا في مجال النظم وحسن الأحكام والإعجاز – إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وتضطرب النفس وترتعد بالخوف مما فيه من الوعيد ثم تسكن وتطمئن عند سماع آيات الرحمة[٣٣].

وورد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: " كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، ذكر لها: إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه "[٣٤].

٦- فيض الدموع

ومن تأثير القرآن على النفوس سيل الدموع بغزارة عند سماعهم منصتا له، كما ذكر الله تعالى: ﴿... وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[المائدة: ٨٣].

يقول سيد قطب رحمه الله : (فهذا مشهد حي يرتسم من التصور القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودّة للذين آمنوا، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن الآثار العميقة العنيف بالحق الذي سمعوا، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير[٣٥،٣٦] وصلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفجر إماما بالناس، فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته وسمعوا بكاءه من وراء الصفوف[٣٧].

٧- التنافس في الحفظ

ومن تأثير القرآن الكريم على النفوس البشرية المؤمنة تنافس المؤمنين في حفظه وقراءته في الصلاة وفي غير الصلاة حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذة منامهم من أجل تهجدهم به في الأسحار ومناجاتهم العزيز الغفار وما كان هذا حالا نادرا فيهم بل ورد أن المار على بيوت الصحابة بالليل كان يسمع لها دويا كدوي النحل بالقرآن ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧].

كان الزهري والحسن يقولان: "كانوا كثيراً من الليل ما يصلون"[٣٨].

وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن حتى في الممات ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: أيهم

أكثر أخذا للقرآن، فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء، وأمر بدفنهم في دمائهم ولم يصل عليهم ولم يغسلهم، وكانت المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إياها زوجها من القرآن "[٣٩]".

الخاتمة

إن تأثير القرآن الكريم في النفوس قد بلغ مبلغا عظيما لم يعرف قبله ولا بعده كلام قط، إذ تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم روعة وخشية وتعتريهم هيبة وتهيمن عليهم عظمته، ونرى آثاره على الجاحدين أبلغ وأظهر، إذ يقرعهم عن ضلالهم ويقيم عليهم حججا لا معقب لها فيستثقلون سماعه ويتولون عنه بنفور مدبرين كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[الإسراء: ٤١].

أبرز النتائج كما يلي:

- إن إعجاز القرآن الكريم هو إظهار صدق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة، وإعجازه لا يمكن حصره.
- الهدف من دراسة إعجاز القرآن الكريم هو إثبات مصدر القرآن الرباني، وأنه كلام الله سبحانه وتعالى، وليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم، والإقرار بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله رسولاً للعالمين.
- إظهار الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم كوجه مستقل بذاته كباقي وجوه الإعجاز الأخرى التي امتاز بها القرآن يلعب دورا فعالا.

- أهمية استخدام الإعجاز التأثيري القرآني في الدعوة إلى الله تعالى كسلاح دعوي، ولسنا بدعا في هذا؛ فقد استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- إبراز ما في آيات القرآن من جوانب الإعجاز التأثيري فيها؛ ليعي الناس هذا الأمر ويفهموه.
- للقرآن سلطان خاص على الفطرة، متى خلي بينها وبينه لحظه، وحتى الذين راتب على قلوبهم الحجب، وثقل فوقها الركام، تنتفض قلوبهم أحيانا وتتململ تحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن.
- الإعجاز التأثيري نوع من أنواع الإعجاز المتعددة التي ذكرها العلماء، وذلك أن القرآن هو المؤثر، والنفس والقلب والروح كلها متأثرة به، وهذا واضح من خلال النصوص القرآنية الشريفة.
- إن أثر القرآن في النفوس البشرية كان واضحا، فقد قلب الأفراد رأسا على عقب، وغير الأمة وبناها بناء جديدا، على الفضيلة والعفة والرفعة والعزة.

المراجع والمصادر:

[١]- الخالدي، الدكتور صلاح عبد الفتاح، (٢٠٠٠م)، **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني**، دار عمان، الأردن، الطبعة الأولى، الصفحة: ١٥.

[٢]- الأصفهاني، الراغب، (١٩٨٧م)، **المفردات في غريب القرآن**، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، الصفحة:٣٢٤.

[٣]- عبد الباقي، محمد فؤاد، (١٠٩٨م)، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، الصفحة: ٥١٣.

[٤]- القاضي، عبد الجبّار، (١٣٨٠هـ)**المغني في أبواب التوحيد والعدل**، الشركة العربية، القاهرة، المصر، ج ١٦، الصفحة:٢٢٦.

[٥]- الخالدي، الدكتور صلاح عبد الفتاح، (١٩٩٣م)، **البيان في إعجاز القرآن**،دار عمّار، عمان، ط٣، الصفحة:٢٣.

[٦]- الشريف الجرجاني، محمد بن علي، (١٩٩٨م) **التعريفات**، دار للكتب العلمية، بيروت، لبنان، الصفحة:٩

[٧]- الخالدي، الدكتور صلاح عبد الفتاح، (١٩٩٣م)، **البيان في إعجاز القرآن**، الصفحة:٣٤١-٣٤٢. دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر- ط٥، الصفحة:٣٥٠.

[٨] - المرجع السابع.

[٩] - ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن سعد الدمشقي،(٢٠٠٨م) **الفوائد المشوق في علوم القرآن**، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الصفحة: ١٥-١٧ .

[١٠] - أبو شهبة، محمد بن محمد (١٩١٤-١٩٨٣م)، **المدخل لدراسة القرآن**، (دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، الصفحة: ١٩٣.

[١١] - محمد الغزالي، (٢٠٠٦م) **نظرات في القرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط٥، الصفحة:١٢٣.

[١٢] - سيد قطب، (١٤٢٣هـ) **في ظلال القرآن** ج٥، مكتبة دار الشروق، القاهرة، مصر، الصفحة:٣٣٩٩.

[١٣] - نفس المرجع ج:٣، الصفحة:١٤٢١.

[١٤] العسقلاني، ابن حجر، (١٩٨٥م) فتح الباري،، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ج ٨، الصفحة: ٦٠٣

[١٥]- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطابي الشافعي، (١٩٨٩م) **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، تحقيق محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، الصفحة: ٧٠.

[١٦] – الوليد بن المغيرة ٩٨ ق.هـ ٥٢٧ م – ١ هـ / ٦٢٢م .(هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر المخزومي القرشي، أحد قادة قريش وسادتها في العصر الجاهلي ووالد الصحابيين خالد بن الوليد والوليد بن الوليد بن المغيرة. كان من أعلى المشركين وأشدّهم أذى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[١٧]– السيوطي، جلال الدين، (١٩٩٧م) **الدر المنثور**، دار العلم للملايين، بيروت،لبنان، الطبعة الأولى،ج٧،الصفحة:٣١٠–٣١١.

[١٨] –عتبة بن ربيعة العبشمي القرشي الكناني سيد عبد شمس و وجيه من وجهاء مكة، ومن حكماء قريش، وشخصية بارزة عند ظهور الإسلام، ويلقب بالعدل لأنه يعدل قريش كلها بالحلم والرأي .عتبة_بن_ربيعة_https://ar.wikipedia.org/wiki

[١٩]– أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد–المتوفى: ١٣٩٤هـ، (٢٠١٠م)، **المعجزة الكبرى للقرآن**، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الصفحة:٦٧.

[٢٠]– ابن هشام، عبد الملك بن هشام (١٩٦٣م)، **السيرة النبوية** لابن هشام، مطبعة محمد علي صبيح، ميدان الأزهر، مصر، سيرة ابن هشام ج١، الصفحة:٣٣٧ إلى ٣٣٨.

[٢١] – سعيد بركة، د.عبد الغني محمد، (١٩٨٩م) الإعجاز **القرآني وجوهه وأسراره**، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ج١ ص:١٤٦.

[٢٢] – ابن كثير،عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير،(١٩٩٤م) **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، المصدر السابق الصفحة: ١٢٧.

[٢٣] – سيد قطب، (١٤٢٣هـ)، **في ظلال القرآن** ج٤، المصدر السابق ، الصفحة:٢٣١٤.

[٢٤] – العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى، (٢٠١٥م)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** – المعروف بتفسير أبي السعود الإمام أبو السعود، ج٥، طبعة:دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الصفحة:٢٧١.

[٢٥] – السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (**١٤٢٤هـ**)، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، ج٢، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، مصر، الصفحة:٥٤١.

[٢٦] – سيد قطب، (١٤٢٣م) **في ظلال القرآن** ج٣، المصدر السابق الصفحة: ١٤٧٥.

[٢٧] – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (٢٠٠٨م)، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج٩، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي، العباسية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، الصفحة:٢٥.

[٢٨] – الآلوسي، محمود شكري الألوسي البغدادي شهاب الدين، (٢٠٠٨م)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ج ١٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الصفحة:١٤٩.

[٢٩] – سيد قطب، (١٤٢٣هـ)، **في ظلال القرآن**، المصدر السابق الصفحة:٥٧٥

[٣٠] – ابن كثير،عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، (١٩٩٤م) **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، طبعة: دار الحديث القاهرة، مصر، ص:٤٥٩.

[٣١] – سيد قطب، (١٤٢٣هـ)، **في ظلال القرآن** ج٥، المصدر السابق الصفحة:١٤٧٥.

[٣٢] – الآلوسي، محمود شكري الألوسي البغدادي شهاب الدين،(٢٠٠٨م)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المصدر السابق ج ٤، الصفحة:٢٣٧.

[٣٣] – الزحيلي: د. وهبة بن مصطفي الزحيلي، (٢٠١٠م)، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**،طبعة: دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، مصر، ج:٢٣، ص:٢٧٩.

[٣٤] – الآلوسي: محمود شكري الألوسي البغدادي شهاب الدين، (٢٠٠٨م) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ج ٩، المصدر السابق، الصفحة:١٦٥.

[٣٥] – سيد قطب، **في ظلال القرآن** ج٢، (١٤٢٣هـ)، طبعة:مكتبة دار الشروق، القاهرة، مصر، الصفحة:٩٦٢.

[٣٦] – رضا: محمد رشيد رضا، (١٣٦٦هـ)، **تفسير القرآن الحكيم: الشهير بتفسير المنار**، طبعة: دار الحديث، القاهرة، مصر، ج٧، الصفحة:١٢.

[٣٧] – الغزولي: عبد العزيز سيد هاشم الغزولي، (٢٠٠١م) **بالقرآن أسلم هؤلاء** طبعة: المكتبة الشامية للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الصفحة ٢٢-٢٤.

[٣٨]– ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل،(١٤٠١هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، مكتبة دار الفكر، بيروت، لبنان، ج ٤، الصفحة: ٢٨٢

[٣٩]– البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، **صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج ١،رقم الحديث:١٢٨٣.